لماذا هذا الكتاب...
ولماذا ينشر الآن...

عندما كان هذا الكتاب قيد الإعداد، ذكرت جريدة جزائرية في مقال تحت عنوان صائب هو: «الاخوة الأعداء» كيف أن سباقا جنونيا نحو السلطة إحتدم بين جيل نوفمبر منذ اليوم الأول لميلاد الدولة الجزائرية. وكتبت الجريدة، بعد أسابيع وهي ساخطة على تشويه الماضي :

«مضى اليوم على هذا الكفاح خمس وأربعون عاما، ويتحمل صانعوه الرئيسيون (...) الذين بدأوا يخرجون شيئا فشيئا عن صمتهم مسؤولية تعليمه وكتابته[1]».

وهكذا دقت ساعة تبليغ الرسالة.

وفعلا فان العزم على تقديم شهادات للتاريخ كان منذ عشريات عدة هاجسا يقض مضجع بعض المؤتمنين عليه. ومن ذلك أن بعضا من الصفحات الموالية كان ينتظر النشر منذ سنين، لكن تعاقب الأنظمة المتسلطة، المعادية لحرية التعبير، وانتظار الظرف الملائم للكشف عن تلك الصفحات أدى الى ترك الأمر للزمن يفعل فعله.

ان بعض رجالات الصيف الكئيب لسنة 1962 فارقوا الحياة وبعضهم مازالوا على قيد الحياة.

واذا كان من الواجب أن نخص الأحياء منهم بالاعتبار، فلا يجب علينا نحو الأموات – زيادة عن الاحترام – إلا قول الحقيقة. «فأول بادرة عن فساد الأخلاق

1 – جريدة الوطن 04 و 09 أوت 1999

هي استبعاد الحقيقة» كما قال أحد القدماء. وفضلا عن ذلك من يستطيع الزعم بأنه يمتلك كل الحقيقة؟ فكل واحد من رفقاء الكفاح لم يدرك منها الا جانبا واحدا، والبعض الآخر لم يستوعب منها على نحو جيد إلا برهة قصيرة. لهذا اقتصر اهتمامنا على الفترة الممتدة بين 27 ماي و29 سبتمبر 1962، فترة عشناها من الداخل وأحسسنا بها احساسا أليما.

والآن ما الذي يتعين قوله أوالسكوت عنه ؟ إن الكتابة بصدق تعني بالتأكيد رواية الحلقات المجيدة من تاريخ ثورتنا التحريرية والحلقات الأقل مجدا، رواية بطولات البعض وحسابات البعض الآخر (وإن كانت حسابات مقرونة بأعمال بطولية)، رواية الاجماع على الكفاح وخلافات القادة. لكن الشيء الذي يبقى حقيقيا بعد كل الشيء ومؤثرا بعمق في اولئك الذين عايشوه هو هذه المعركة التي قادها رجال لهم قناعتهم ومواطن ضعفهم، جدارتهم وعيوبهم... فكانت المعركة – لهذا السبب – ملحمة حقيقية لم تسنح لأجيال أخرى فرصة معايشتها.

إن قول الحقيقة لا يكون صالحا في كل وقت خصوصا خلال سنوات العتمة و«لغة الخشب» حيث كانت الثورة وبعض قادتها محل تقديس بينما طال التشويه صورة البعض الآخر ولف النسيان آخرين مؤقتا أونهائيا، وهو نسيان أريد له أن يكون انتقائيا. لكن يظل «صحيحا كون الذي لا يجهر بالحقيقة وهو يعرفها يجعل من نفسه متواطئا مع الكذابين والمزورين والمنافقين».

إن قول الحقيقة خلافا للتيار المدعم بالرواية الرسمية للأحداث ربما يعني المساهمة في زعزعة اليقين واحداث الاضطراب في الأمن الاجتماعي. لكن ليس هذا قصدنا. كل ما في الأمر أن طموحنا هو أن نعيد بأمانة سرد تجربة قاسية ونسلم الأجيال الجديدة ما يبدو لنا جزءا من الحقيقة خصوصا أن الوقت ما يزال مواتيا. ذلك أن شعبا محترما هو شعب يتحمل تاريخه بما فيه من أحداث أليمة ومريرة.

من جهة أخرى لماذا يكون الشاهد المشارك في صنع الحدث ملتزما بالحقيقة بينما كان طرفا فيما جرى بحكم مشاركته تلك ؟ آلا يكون الانسان الملتزم في

غالب الأحيان منحازا ؟ ورغم ذلك «فلا يستطيع كتابة الحقيقة الا أولئك الذين أحسوا بها». فلنكن اذن متواضعين، فلا أحد يحتكر الحقيقة، ولكل واحد الحق في الاحتجاج شريطة أن يدعم أقواله بوقائع ثابتة ووثائق أصلية أوبمراجع موثوقة خدمة للتاريخ. ذلك أنه اذا كان ماضي شعب ما يفسر حاضره ويحدد شرط مستقبله، فماذ ا يكون مصيرنا اذا كان ماضينا مغشوشا أو مزوراً؟

ونقدم اليوم في هذه الصفحات سردا موضوعيا قدر الامكان لمرحلة شديدة التأثير في تاريخنا قد يكون آخرون عايشوها أواستوعبوها أوقيموها على نحو مختلف. وليس في نيتنا الخوض في خصام أو حتى اعادة فتح جروح يجهلها أغلبية الجزائريين أرادها الجيل الأكبر أن تبقى ملتئمة كليا.

وإنه لعمل تافه وغير مجد لو عمدنا هنا الى إجراء حساب ردىء لنؤكد على من كانت له في طرابلس الأغلبية أو الأقلية بفارق ضئيل في الأصوات. إن التاريخ لا يتكرر لكن التغيرات المفاجئة في هذا المؤتمر يجب أن تكون كما يبدو معروفة على نحو أفضل لمحو الآثار السيئة الراسخة الى حد أن الصحافة – خلال الاقتراع الرئاسي الأخير – تناقلت صداها ومازال رنينها المؤسف يطرق السمع.

عند حديثنا على رؤسائنا السابقين كادت بعض العبارات أن تفلت. ومهما قيل بشأنهم، فهم كانوا ممثلين للدولة، وقد راعينا صفتهم هذه. واذا كان شيء من التقييم يبدوانتقاصا من قيمتهم فالمقصود به ليس الرجال لكن عملهم السياسي، اننا لا نغذى الحقد اتجاه أحد أو الخشية من أي كان. وقد لا يعجب كلامنا البعض فليعذرنا أولئك الذين يعتقدون أننا أسأنا إليهم بغير حق. هدفنا الوحيد هو أن نحلل بلا مواربة سلوكات مازالت آثارها مستمرة الى اليوم.

وقد اخترنا أيضا أن نستشهد مطولا – عند الضرورة – بأقوال الأطراف الفاعلة «لأن الانسان مقيد بأقواله» مفضلين هذا الاستشهاد على تأويلات الآخرين. كما أننا حاولنا أن نولي أهمية للوقائع بالتقليل من التعاليق التي لا تلزم إلا أصحابها.

وأخيرا حافظنا على أسماء الأمكنة الشائعة آنداك تجنبا لأي اضطراب ومراعاة لتطابقها مع المعلومات اليومية لذلك الوقت. أما فيما يخص التعابير المستعملة وقتئذ فلا يبدو ضروريا تبديلها بغيرها حتى وان كان غيرها أشد ملائمة. وهكذا كان الأهالي حتى الاستقلال يسمون في الاصطلاح اللغوي الكولونيالي «مسلمين» دون أن يكون لهذ ه التسمية مدلول ديني، لأن لفظ جزائرين كان من شأنه أن يذكر بوجود بلد هو الجزائر تحول إسمه بمصطلح قانوني سياسيي إلى : المقاطعات الفرنسية الثلاث. واستمر الأمر كذلك في البلاغات والصحافة مدة طويلة بعد الاستقلال. فالأساطير كثيرا ما يكون عمرها طويلا.

هذا هو إطار هذا العمل. وتلك هي المبادئ التي يسترشد بها. فهل تم احترام هذا الاطار وتلك المبادئ ؟ على القارئ أن يحكم.

ونؤكد الآن أن هذا الكتاب علاوة على تذكيره لنا بحقبة هامة من تاريخنا نريده في المقام الأول أن يكون تحية صادقة لذكرى أولئك المجاهدين الذين سقطوا من كلا المعسكرين خلال الفتنة بصفتهم إخوة أعداء، فلا الحقد كان يحركهم ولا شيء في الحقيقة كان يفرقهم سوى الرغبة الجامحة عند بعض القادة في أن يكونوا أول من يستولي على السلطة. إن لأولئك الشهداء شهادة مضاعفة لأن من يموت سدى يموت مرتين.

ونريد لهذا الكتاب بعد ذلك أن يكون رسالة أمل للأجيال الصاعدة التي لا تعرف من الماضي القريب إلا أجزاء موجهة، وإلى الآخرين الذين يتناقص عددهم بمرور الوقت، وربما كانوا أكثر اطلاعا عسى أن يعيدوا النظر في الأحداث من زاوية جديدة بمقارنة أكثر صفاء خالية من ضباب الالتزام الحزبي.

لقد كان الهدف الأساسي لهذا الكتاب هو رفع الستار على مرحلة بقيت خفية، ألا وهي نهاية حرب التحرير الوطنية. إن تطرقنا لمراحل حساسة من ثورتنا المجيدة أمر يحتم علينا عدم إخفاء بتاتا ما حدث من اضطرابات لا مفر منها في كل ثورة، والتي ستهز جملة القناعات غير الراسخة آنذاك. ومهما كلّف ذلك، فإن الحقيقة – حتى وإن كانت مؤلمة – هي أفضل من الصمت أو المسكوت عنه، ومن الأكاذيب.

يفرض علينا الأمر كذلك الابتعاد قدر الإمكان عن الحدث ذاته، حتى لا نقع – رغم أن هذا الأمر صعب المنال – في إشراك التبرير الذاتي بإلقاء التهم على الآخرين ورفض كل ما قاموا به.

إن الزوبعة التي أثارتها «الخرجة» الأخيرة للرئيس السابق أحمد بن بلة في اتهاماته ضد عبان رمضان وبخاصة أرضية الصومام، التي تبقى نص مؤسس للدولة الجزائرية، تكشف بوضوح الجهل المستفحل الذي يميّز المدرسة والجامعة الجزائرية. أليس هذا دليل على جمود وانغلاق الفكر عندنا؟

أم آن وقت كتابة التاريخ الحقيقي للملحمة الثورية الجزائرية، التي لا تحتاج في ذلك إلى أي مدح أو مثالية؟ هل يحق للأطراف الفاعلة في حرب التحرير، والتي لا تزال على قيد الحياة، أن تجعل من شهادتها وديعة لا تمس*، أو من واجبها أن تصفيها من كل العيوب التي تكون موضوع لها كل حرب. حتى وإن كانت تحريرية؟

أو هل كان «للغة الخشب» التي تتميز بها أنظمة الفكر الأحادي، أن فرضت أو، أقل من ذلك، قللت من إسهام البناة الحقيقيين للاستقلال، في الوقت الذي كانت ترفع من شأن أصحاب السلطة، في انتظار إنحنائها أمام الأسياد الجدد؟

إنها جملة من التساؤلات يحاول هذا الكتاب أن يجد لها أجوبة متوخيا في ذلك الوصول إلى أكبر قدر ممكن من القراء.

وما ترجمة هذا الكتاب الذي حرّر في نسخته الأولى بالفرنسية ما بين جويلية وأكتوبر 1999، إلا إرادة منا لإنارة القارئ الجزائري الذي يتقن لغة الضاد، حول مرحلة هامة من تاريخنا، والتي أرادت لها ضرورات الحكم السياسي، منذ الاستقلال، أن تبقى مظلمة.

---

* – ملاحظة المراجع: كثيرون هم أبطال ثورة التحرير الذين رفضوا ويرفضون كتابة شهاداتهم، لقد رحل منهم الكثير ورحلت معهم شهاداتهم ومن بينهم الفاعلين الرئسيين أمثال المناضل المرحوم لمين دباغين.

بتعريجه على أربعة أشهر من سنة 1962، فإن هذا العمل يطمح قبل كل شيء أن يساهم، دون أية عقدة أو مجاملة، في تطهير الماضي وفتح الطريق، في مطلع القرن هذا القرن، لجزائر تحترم قيمها العريقة والراسخة أساسا في دولة القانون.

الجزائر في 15 نوفمبر 2002